أعظم الشيوخ في تاريخ الأَزهر ومؤلفاتهم

د. أحمد الشرباصي

إن تاريخ الأزهر طويل عريض، يستطيع الباحث فيه أن يصول ويجول، ليستعرض أكثر من ناحية أو أكثر من اتجاه، فهناك النواحي الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها. وإن ألف عام تمر على الأزهر وهو قائم ثابت لدليل أي دليل على أن الله (تبارك وتعالى) قد أعطى هذا المعهد الإسلامي الأكبر من عوامل البقاء والخلود شيئًا كثيرًا، على الرغم مما عرض له أو حاق به.

وإني الآن بسبيل أن أتحدث حديث الإيجاز عن بعض الشيوخ اللامعين في تاريخ الأزهر، وعن كتبهم ومؤلفاتهم التي تصور عقلياتهم وجهودهم الثقافية والفكرية، حتى يكون ذلك الحديث لونًا من ألوان التعريف بالتراث الفكري الضخم، الذي يرتبط بتاريخ هذه الجامعة الإسلامية العربية التليدة. هذا الحديث لا يستوعب ولا يستقصى، بل يقوم بمسيرة عاجلة خلال قرون الأزهر العشرة، فيختار منها طائفة من الشيوخ، منذ فتح الأزهر أبوابه، حتى آخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وأما القرن العشرون فقد حفل بعشرات وعشرات من الأزهريين الذين غزر إنتاجهم، وكثرت مؤلفاتهم، وهؤلاء جديرون بأن يستقلوا بحديث.

وصاحب هذا البحث لا يستطيع أن يزعم لنفسه – فضلًا عن أن يزعم لغيره – أنه قد أحصى مؤلفات كل شيخ من هؤلاء الأعلام، وإنما الذي كان أنه بحث وفتش، مستعينًا بكتب السابقين وكتب اللاحقين، وانتخل من هذا العباب خلاصة تصلح أن تكون علامة بارزة على طريق التعرف المفصل إلى تراث الأزهر في مجال التأليف والإنتاج الفكري.

وإذا كان ابن تغري بردي قد عرفنا في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) بطائفة من أعلام الأزهر الذين تألقوا منذ قرون، فإن عبد الرحمن الجبرتي قد عرفنا في تاريخه بطائفة أخرى منذ قرابة قرنين، وجاء باحثون معاصرون فعرفوا بطوائف من أعلام الأزهر في القديم والحديث، فكتب الأستاذ مُحَمَّد عبد الله عنان كتابه (تاريخ الجامع الأزهر)، وظهر للدكتور عبد الحميد يونس كتابه (الجامع الأزهر)، وظهر للدكتور كامل الفقي كتابه (الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة)، وظهر للدكتور مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي كتابه (الأزهر في ألف عام)، وظهر من وزارة الأوقاف كتاب (الأزهر: تاريخه وتطوره)، وظهر للشيخ عبد المتعال الصعيدي كتابه (تاريخ الإصلاح في الأزهر)، وظهر للدكتور أحمد الشرباصي كتابه (في عالم المكفوفين)، ومنهم طائفة كبيرة من هؤلاء الأعلام الأزهريين، وظهر كتاب (الأعلام) للأستاذ خير الدين الزركلي، وهو يضم في تراجمه أخبارًا عن كثير من هؤلاء الأعلام.. وهذه المجموعة من مشهوري الشيوخ إما أن يكونوا قد تعلموا في الأزهر، أو قاموا بالتدريس في الأزهر، أو كان للأزهر تأثير فيهم بطريق مباشر أو غير مباشر، أو كان لهم تأثير في مسيرة الأزهر الفكرية بطريق مباشر أو غير مباشر.

ولن يعنينا كثيرًا في هذا المجال أن نطيل عنان الحديث عن تراجم هؤلاء وأحداث حياتهم، فهي معروفة يسهل على اليد أن تتناول تفاصيلها من المراجع التي ذكرتها أو من سوها، وإنما يعنينا أن نذكر لكل واحد منهم ما نعرفه من مؤلفاته، ليكون ذلك رصدًا تاريخيًا للاتجاهات التي سيطرت على هؤلاء في مجال العلم والفكر والثقافة.

وينبغي أن نلاحظ هنا جملة ملاحظات:

أولًا: إن بعض هذه المؤلفات قد طبع، ولكن نسخه نادرة أو قليلة، وأن بعضها مفقود أو مجهول المصير، وأن الكثير منها ما زال مخطوطًا ينتظر اليد الأمينة النشيطة لإخراجه من الظلمات إلى النور، وأن أكثرها لم يطلع عليه أبناء الجيل الحاضر، حتى من الأزهريين المعاصرين.

ثانيًا: إن الكثير من هذه المؤلفات تدور حول موضوعات دينية أو لغوية، وبعضها يدور حول موضوعات يظن الكثير من الناس أن لا علاقة لها بالأزهر، كموضوعات الطب والهندسة والفلك والحساب والجبر.

ثالثًا: إن كثيرًا من هذه الكتب كانت مقررة للتدريس في الأزهر، أو شرحًا لهذه الكتب المقررة، وذلك أمر طبيعي لأن العلوم التي كانت تدرس في الماضي بالأزهر كانت كثيرة متنوعة.

رابعًا: إن مجموعة هذه المؤلفات تسير في الغالب على طريقة أزهرية خاصة معروفة بين أبناء الأزهر، أو كانت معروفة بينهم إلى عهد قريب، إذا حرصنا على الدقة في التعبير، وهي طريقة (المتن، فالشرح، فالحاشية، فالتعليق، فالتقرير)، وفي سنة ١٩٦٦ شرحت في كتابي (رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة) هذه الطريقة.

خامسًا: شيوع السجع في عناوين هذه المؤلفات، ولم يقل السجع في عناوين الكتب إلا أخيرًا، وسنجد بين مئات المؤلفات أمثال هذه العناوين: (دعائم الإسلام في الحلال والحرام – البرهان في تفسير القرآن – المختار في ذكر الخطط والآثار – منهج السلوك إلى نصيحة الملوك – دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار – البحر المورود في المواثيق والعهود).. إلخ.

سادسًا: أن هؤلاء الأعلام لم يكونوا من مصر وحدها، بل من أقطار كثيرة، قد تكون من العالم العربي، وقد تكون من العالم الإسلامي، وهذا أمر طبيعي؛ لأن الأزهر ليس جامعة مصرية، وليس جامعة عربية، وإنما هو جامعة إسلامية لكل المسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

اتجاهات علمية واسعة:

وأول شخصية تبدو أمامنا من مشهوري الأزهريين أصحاب المؤلفات والكتب هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله بن مُحَمَّد القيرواني، قاضي المعز لدين الله الفاطمي، وقد كان القيرواني من أعلام الدعاة إلى المذهب الفاطمي الشيعي، وقد توفي سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، وكان كتابه (الاقتصار في فقه آل البيت) هو أول كتاب درس في الأزهر، وإلى جوار هذا الكتاب توجد للقيرواني كتب أخرى، منها:

١- مختصر الآثار فيما روى الأئمة الأطهار.
٢- الدعائم في المذهب الإسماعيلي.
٣- دعائم الإسلام في الحلال والحرام.
٤- الينبوع.
٥- المجالس والمسايرات.

٦- اختلاف أصول المذاهب.

٧- الأخبار.

والصبغة الغالبة على هذه المؤلفات أنها كتب فقهية واعتقادية، وأنها تصور نتاج عالم شيعي إسماعيلي، يحاول بالكلمة المكتوبة، كما حاول بالكلمة المنطوقة أن يدعو إلى مذهب الفاطميين الذي شاع في مصر خلال ذلك العهد.

ويأتي بعد ذلك أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس، الذي ولد في بغداد، ورحل إلى مصر سنة ٣٣٤هـ، وكان يهوديًا فأسلم في شعبان سنة ٣٥٦هـ، ثم رحل إلى المغرب، وهناك تعرف إلى المعز لدين الله الفاطمي، وحظي عنده، حتى صار رائدًا لجيش المعز في حملته على مصر، وحضر يعقوب مع المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، وقام بالتدريس في الأزهر، وكان بارع الحديث والمحاضرة، وكان ثريًا معطاء، وتولى الوزارة للمعز، ولقبه المعز بلقب الوزير الأجل، وتوفي في ذي الحجة سنة ٣٨٠هـ. وله طائفة من الكتب والمؤلفات، منها:

١- الرسالة الوزيرية في الفقه الشيعي.

٢- كتاب في القراءات.

٣- كتاب في آداب رسول الله (ﷺ).

٤- كتاب في علم الأبدان والصحة.

ونلاحظ أن الدعوة إلى المذهب الشيعي ظاهرة في عنوان الكتاب الأول، وأن الناحية الدينية تستحوذ على معظم المؤلفات، ولكن أضيف إليها التأليف في العلوم الطبية، وقد يدلنا هذا على أن رجال الأزهر لم

يقتصروا على البحث في العلوم الشرعية، بل طرقوا أبوابًا غيرها من العلوم والمعارف. وممن تألقت أسماؤهم في تاريخ الأزهر من ناحية العلم والتأليف فيه: أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى، الذي كان أمامًا علامة في النحو وعلوم العربية، وقد توفي سنة ٤٣٠هـ. ومن مؤلفاته:

١- البرهان في تفسير القرآن.

٢- الموضح في النحو.

٣- إعراب القرآن.

٤- مختصر كتاب العين للخليل (فى اللغة).

وإذا كان بعض هذه الكتب يشير إلى العناية بأمر تفسير القرآن الكريم؛ لأن فهم كتاب الله (تبارك وتعالى) يأتي في الصدر بالنسبة إلى علماء الإسلام، فإن بقية الكتب تشير إلى العناية بالنحو واللغة. وللأزهر الشريف منذ أقدم العهود شهرة عالمية بالعكوف على قواعد النحو والصرف، والعناية بمفردات اللغة وتراكيبها، ولعل هذه الكتب التي ألفها الحوفي تشير أيضًا إلى اتساع الاتجاه العلمي داخل الأزهر، فبعد أن كنا نرى الدعوة المذهبية الشيعية غالبة عليه، أخذنا نرى من رجاله عناية بعلوم القرآن وعلوم العربية.

ويأتي الفقيه المفسر المحدث المؤرخ: أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلامة بن جعفر القضاعي المولود بمصر، والذي تولى القضاء في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأرسله الخليفة إلى قيصرة قسطنطينية (تيودورا) سنة ٤٤٧هـ لمحاولة الصلح بينها وبين مصر، والذي تأثر بالأزهر وأثر فيه، وتوفي بمصر سنة ٤٥٤هـ، وكانت له مجموعة مؤلفات ضخمة منها:

١- تفسير القرآن (عشرون مجلدًا).
٢- تواريخ الخلفاء.
٣- خطط مصر.
٤- درة الواعظين وذخر العابدين.
٥- نزهة الألباب.
٦- دقائق الأخبار وحدائق الاعتبار.
٧- دستور معالم الحكم.
٨- ألف ومئتا كلمة من حديث رسول الله (ﷺ).
٩- الشهاب في المواعظ والآداب.
١٠- مسند الصحاب.
١١- أنباء الأنبياء.
١٢- مناقب الإمام الشافعي.
١٣- عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف.
١٤- المختار في ذكر الخطط والآثار.

ونلاحظ أن الصبغة الغالبة على هذه المؤلفات هي الميل إلى التاريخ والوعظ، ولكن لا يفوتنا التنويه بأحد هذه الكتب وهو (دستور معالم الحكم)، فعنوانه قد يفهمنا أن من علماء الأزهر من أخذ يكتب عن السياسة الشرعية وعن الأمور التي تتصل بالحكم والمجتمع، وهذا إسهام شخصي من القضاعي وأمثاله في توسيع دائرة الدراسات التي شهدها الأزهر الشريف خلال تاريخه الطويل. ويأتي اللغوي النحوي أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري، المعروف بابن باب شاذ، الذي كان إمام عصره في

النحو واللغة، وتأثر بالأزهر وأثر فيه، وكان تاجرًا في الجواهر، وتولى إصلاح ما يصدر من كتابات عن (ديوان الإنشاء) في مصر، وتزهد في آخر حياته، وتوفي سنة ٤٦٥هـ، وقد ألف عدة كتب منها:

١- شرح الجمل للزجاجي.

٢- شرح الأصول لابن السراج.

٣- شرح النخبة.

٤- التعليق في النحو (خمسة عشر مجلدًا).

٥- المحتسب في النحو.

ومن الجلي أن المجرى الرئيسي لكتب ابن باب شاذ هو مجرى الدراسات النحوية، وكان هذه المؤلفات امتداد للاتجاه الذي سار فيه الحوفي وأمثاله، كما أن هذه المؤلفات تمثل ما نستطيع أن نسميه بالكتب الدراسية في الأزهر حينئذ.

ويأتي أبو نصر المؤيد في الدين: هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، الذي لقبوه بداعي الدعاة وباب الأبواب، وأصله من شيراز، ورحل إلى الأهواز، ثم رحل إلى مصر، ودعا إلى مذهب الفاطميين، وكان يلقي دروسه في الأزهر، وكان شاعرًا مناظرًا، ناظر أبا العلاء المعري بالمراسلة في موضوع (أكل النبات)، وتوفي بمصر سنة ٤٧٠هـ وعمره ثمانون عامًا، وترك من ورائه مجموعة كتب ومؤلفات نذكر منها:

١- المجالس المؤيدية.

٢- السيرة المؤيدية.

٣- ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

٤- أساس التأويل (بالفارسية).
٥- مراسلات مع أبي العلاء المعري.
٦- تأويل الأرواح.
٧- المرشد إلى أدب الإسماعيلية.
٨- كتاب الابتداء والانتهاء.
٩- كتاب المسألة والجواب.
١٠- المسائل السبعون.
١١- نهج الهداية للمهتدين.
١٢- نهج العباد وشرح المعاد.
١٣- الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير.

ونشاهد أن الميل إلى الدراسات المذهبية الشيعية يبدو جليًا في هذه القائمة من المؤلفات، في الوقت الذي كان أبناء الإسلام يأملون فيه أن ينفسح رحاب الأزهر المعمور لدراسات فقهية وإسلامية أوسع وأشمل؛ حتى لا يقتصر البحث على مذهب بعينه أو اتجاه بذاته.

وكي لا يطول بنا الانتظار في تاريخ الأزهر الشريف حتى يأخذ أبصارنا ضوء علم من الأعلام، تأثر بالأزهر وأثر فيه، وهو الشيخ العلامة الإمام شيخ الإسلام: عز الدين أبو مُحَمَّد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن مُحَمَّد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي، المشهور باسم (العز بن عبد السلام) أو (عز الدين بن عبد السلام) والملقب بلقب (سلطان العلماء). وقد ولد بدمشق سنة ٥٨٧هـ، وتألق في العلم والفقه، فأفتى وألف وصنف، وبلغ مرتبة الاجتهاد، وقصده

الطلاب وتخرج على يديه أئمة، وتولى قضاء مصر القدية مدة من الزمن، وقام بالتدريس في عدة بلاد، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ. وقد خلف لنا العز بن عبد السلام مؤلفات كثيرة منها:

١- الإلمام في أدلة الأحكام.
٢- التفسير الكبير.
٣- قواعد الشريعة.
٤- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام.
٥- بداية السول في تفضيل الرسول.
٦- الفرق بين الإيمان والإسلام.
٧- قواعد الأحكام في إصلاح الأنام.
٨- رسالة في التصوف.
٩- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.
١٠- الغاية في اختصار النهاية.
١١- الفوائد في مشكل القرآن.
١٢- حل الرموز (تصوف).
١٣- مسائل الطريقة (تصوف).
١٤- شجرة المعارف والأحوال، وصالح الأعمال والأقوال.
١٥- مقاصد الصلاة.
١٦- مناسك الحج.

ونلاحظ في كتب العز بن عبد السلام تنوعًا وتناولًا لموضوعات مواد مختلفة، فهو قد كتب في التفسير والأصول والفقه والتاريخ والاجتماع

والتصوف، وقد كانت للدراسات الصوفية بين علماء الأزهر منزلة ملحوظة، وإذا كان العز قد أسهم في ذلك بنصيب، فإن غيره قد توسع في هذا الجانب الروحي من الدراسات الإسلامية، كما سنرى في موطن آخر، وهذا التنوع الواضح في كتب العز بن عبد السلام ينهض دليلًا آخر على أن رحاب الأزهر اتسعت لمختلف العلوم والفنون.

ثم نمضي مع الزمن سراعًا حتى نلمح من بين أعلام الأزهر شخص أبي يحيي زكريا بن مُحَمَّد بن محمود الأنصاري، الحافظ شيخ الإسلام، والذي كان يراجع السلطان وينصحه، وقد ولد سنة ثلاث وعشرين وثمانمئة، وتعلم في الأزهر، ودرس فيه كثيرًا من العلوم الدينية كالهندسة والميقات والجبر، وتولى منصب قاضي القضاة، وتوفي سنة ٩٢٦هـ، وتروي سيرته أنه صنف في كثير من العلوم كالفقه والتفسير والحديث، واللغة والتصريف والبلاغة والمنطق، والطب والجبر والمقابلة والهندسة والهيئة وغيرها. ومن كتبه:

١- فتح الرحمن في تفسير القرآن.
٢- تحفة الباري على صحيح البخاري.
٣- شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث.
٤- فتح الوهاب في شرح الآداب.
٥- غاية الوصول في الأصول.
٦- شرح إيساغوجي في المنطق.
٧- منهج الطلاب في الفقه.
٨- تحفة نجباء العصر في التجويد.

٩- شرح شذور الذهب في النحو.

١٠- اللؤلؤ النظيم في روح التعلم والتعليم.

ولم أرد أن أذكر هنا اسم جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي المولود سنة ٨٤٩هـ والمتوفي سنة ٩١١هـ، والذي كان إمامًا مفسرًا حافظًا مؤرخًا أديبًا؛ لأن مؤلفاته أعظم من أن نشير إليها بكلمات عاجلة وسط هذه المسيرة، فقد ألف السيوطي ما يقرب من ستمئة مؤلف في التفسير والحديث والفتاوى، والتاريخ واللغة والأدب، والمقامات والنحو والتراجم وغيرها، وهذا القدر الضخم من المؤلفات يحتاج إلى دراسة واسعة لا إلى إشارة عابرة.

وجاء الصوفي الكبير عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعراني المصري، الذي ولد في بلدة (قلقشندة) بمصر سنة ٨٩٨هـ، ونشأ في قرية (ساقية أبي شعرة) بالمنوفية وإليها ينسب، ودخل الأزهر، وتعلم على يد شيخه (علي الشوني) وغيره، واتصل بالأعلام من شيوخ الأزهر، من أمثال السيوطي والأنصاري واللقاني والرملي والسمنودي، ويصور الشعراني بعبارته جانبًا من العلوم والكتب التي درسها بعد أن ترك قريته وتوجه إلى القاهرة ليدرس في الأزهر، فيقول: "ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووي، ثم ألفية ابن مالك، ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع، ثم ألفية العراقي، ثم تلخيص المفتاح، ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام، وغير ذلك من المختصرات، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ.

ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة، لكونه أجمع

كتاب في مذهب الشافعي، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب، وهو في أواخر الكتاب، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق (باب الخلق) خارج باب زويلة فقال لي مكاشفًا: قف على باب القضاء على الغائب، ولا تقضِ على غائب بشيء. فما قدرت بعد ذلك على حفظ شيء منه، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مئة مرة، وكنت أقرأ محفوظي للمتن في الشرح، وأنظر كل شيء توقفت في فهمه، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (الأنصاري) عندي نصب عيني.

ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول (ﷺ)، فقال لي مكاشفًا: أقبل على الاشتغال بالله، ويكفيك من العلم ما قد تعلمته، فشاورت في ذلك مشايخي، فقالوا: لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم".

وإنما سقت هذا النص من كلام الشعراني لأبين أن هذا التوجيه كان له أثر كبير في مؤلفات الشعراني الذي توفي سنة ٩٧٣ بالقاهرة، فقد استجاب الشعراني لتوجيه أساتذته، وقرأ محفوظاته على خمسين شيخًا وسمع شرحها، ثم انصرف بجل عنايته إلى الدراسات الصوفية والتأليف فيها، وترك من ورائه ما يقرب من ستين كتابًا، أغلبها في التصوف والحكم والتوجيه الروحي، ومنها:

١- لطائف المنن.

٢- مختصر تذكرة القرطبي.

٣- مشارق الأنوار.

٤- اليواقيت والجواهر.

٥- مدارج السالكين.

٦- منح المنة في التلبس بالسنة.

٧- بهجة النفوس.

٨- تنبيه المفترين.

٩- الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية.

١٠- البحر المورود في المواثيق والعهود.

١١- الأنوار القدسية.

وقد كانت هذه الكتب سببًا في صراع عنيف وقع بين الشعراني وطائفة من علماء الأزهر حول آرائه الصوفية، وحديثه عن الشريعة والحقيقة، وهذا الصراع يصلح أن يكون موضوعًا لمقال مستقل عن (الشعراني والأزهر)، ولكنا نلاحظ أن موضوع التصوف أخذ يشغل علماء الأزهر في هذه المدة تأييدًا أو تفنيدًا، فكان هناك مثلًا من أيد الشعراني ودافع عنه، وكان هناك من عارضه وهاجمه، بل وافترى عليه.

ثم جاء أول رجل تولى مشيخة الأزهر، بعد إنشاء هذا المنصب، وهو الشيخ أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله الخراشى المالكي، الذي ينسب إلى قرية (أبي خراش) في البحيرة، وقد ولد بالقاهرة سنة ١٠١٠هـ، وأخذ العلوم عن طائفة من شيوخ الأزهر، وكان فقيها فاضلًا ورعًا، وقد توفي بالقاهرة سنة ١١٠١هـ، ومن كتبه:

١- الفرائد السنية في شرح المقدمة السنوسية.

٢- الشرح الكبير على متن خليل في الفقه المالكي.

٣- جزء في الكلام على البسملة.

٤- الشرح الصغير على متن خليل.

ونلاحظ أن مؤلفاته يغلب عليها الاتجاه إلى الفقه المالكي؛ لأنه كان مالكيًا، ونستطيع أن نقول أن هذه المؤلفات كانت -في الغالب- لا تتخطى نطاق الكتب الأزهرية الدينية التي يدرسها العلماء لطلابهم في الجامع الأزهر. ثم جاء العالم الشاعر الشيخ عبد الله بن مُحَمَّد بن عامر الشبراوي، الذي تولى مشيخة الأزهر أيضًا، وولد سنة ١٠٩١هـ وتعلم في الأزهر، وبرز وتألق في العلم والشعر، وكان صاحب جاه ومنزلة، ومن كتبه:

١- منائح الألطاف في مدائح الأشراف.

٢- عنوان البيان.

٣- شرح الصدر في غزوة بدر.

٤- ديوان شعر الشبراوي.

والظاهرة اللافتة للنظر هنا هي غلبة الشعر على أحد أقطاب الأزهر، بل وأحد الأعلام الذين تولوا مشيخة الأزهر، مع أن الذي كان شائعًا في الأزهر إلى عهد قريب، أن الأزهري الذي يشتغل بالأدب أو الشعر لا يفلح في تكوين نفسه علميًا وفكريًا، ولكن يظهر أن الشيخ الشبراوي قد هدم هذا الزعم منذ أكثر من ثلاثة قرون، ثم انتقل الأزهر -وخاصة في عهده الحديث- إلى عناية واسعة بالأدب والشعر، وتألق في سمائه عشرات وعشرات من الأدباء والشعراء يحتاج الحديث عنهم إلى مئات من الصفحات.

وفي السنة التي لحق فيها الشعراني بربه (تبارك وتعالى)، وهي سنة ١١٠١هـ، ولد الشيخ شمس الدين مُحَمَّد بن سالم بن أحمد الحفني (أو

الحفناوى) الشافعي، وقد ولد في بلدة (حفنة) بالشرقية، وتعلم في الأزهر الشريف، وصار فقيهًا في مذهب الشافعية، وبرع في علم العروض، وقال الشعر أيضًا على قلة، وقد تولى الشيخ الحفني مشيخة الأزهر كذلك، وخلف لنا كتبًا كثيرة منها:

١- حاشية على شرح الأشموني في النحو.

٢- أنفس نفائس الدرر.

٣- فوائد عوائد جبرية.

٤- رسالة في التقليد (في الحساب).

٥- حاشية على شرح السمرقندي للياسمينية في الجبر والمقابلة.

٦- حاشية على شرح العزيزي للجامع الصغير.

٧- حاشية على الشنشوري في الفرائض والمواريث.

٨- الثمرة البهية في أسماء الصحابة البدرية.

٩- حاشية على شرح العضد للسعد (فى البلاغة).

١٠- حاشية على مختصر السعد في البلاغة.

ونلاحظ هنا أن عالمًا تولى مشيخة الأزهر، وكان له باعه في الدراسات الأزهرية، ومع ذلك كان يقول الشعر، وكان يؤلف في الجبر والحساب، وكان يقول الزجل العامي كما رأينا.

ثم نجد الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري، المولود في دمنهور سنة ١١٠١هـ، والذي تلقى العلوم العقلية والطبية في الأزهر، وتولى مشيخة الأزهر، وكان مهيبًا عند الأمراء، قوالًا لكلمة الحق، آمرًا بالمعروف، وكان يعرف باسم (المذاهبي) لعلمه بالمذاهب الفقهية

الأربعة، وله تآليف كثيرة، وقد توفي سنة ١١٩٢هـ. ومن كتبه ما يلي:

١- الفيض العميم في معنى القرآن العظيم.

٢- إيضاح المبهم من معاني السلم.

٣- سبيل الرشاد إلى نفع العباد.

٤- حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون.

٥- منتهى الإرادات في تحقيق الاستعارات.

٦- القول الصريح في علم التشريح.

٧- الزهر الباسم في علم الطلاسم.

٨- طريق الاهتداء بأحكام الأمة والابتداء.

٩- الفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيباني.

١٠- نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف.

١١- منهج السلوك إلى نصيحة الملوك.

١٢- إحياء الفؤاد بمعرفة ظواهر الإعداد.

١٣- عين الحياة في استنباط المياه.

١٤- الرقائق الألمعية على الرسالة الوضعية.

ونلاحظ في مؤلفات الدمنهوري هذا التوسع الفسيح في مختلف العلوم والفنون، فهو لا يقتصر على الموضوعات الدينية واللغوية فحسب، بل يكتب في التشريح والحساب واستنباط المياه وشؤون المجتمع وسياسة الحكم.. ويأتي الشيخ أحمد بن أحمد بن مُحَمَّد السجاعي البدراوي الأزهري، المتوفي سنة ١١٩٧هـ، وهو من قرية (السجاعة) بالغربية، وهو فقيه شافعي المذهب، درس وأفتى وألف. ومن كتبه:

١- الدرر في إعراب السور.
٢- حاشية على شرح القطر لابن هشام.
٣- شرح معلقة امرئ القيس.
٤- شرح لامية السموأل.
٥- حاشية على شرح ابن عقيل للألفية.
٦- منظومة في الاستعارات.

ثم جاء الشيخ أبو البركات أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد العدوي، المشهور بالشيخ الدردير، الذي ولد في بني عدي بمحافظة أسيوط سنة ١١٢٧هـ، ورحل إلى الأزهر فتعلم فيه، وبخاصة عن الشيخين علي الصعيدي والحفني، وتألق نجمه، وتصوف وأفتى، وكان مثالًا في التعفف، وتولى مشيخة المالكية ونظارة وقف الصعايدة، ومشيخة رواقهم. وكان لا يهاب سطوة المماليك، بل يقف بجوار الشعب يقاوم مظالم الحاكمين الذين كانوا يهابونه ويعرفون مكانته الشعبية. وقد توفي الشيخ الدردير بالقاهرة سنة ١٢٠١هـ، ومن مؤلفاته ما يلي:

١- أقرب المسالك لمذهب مالك.
٢- تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان.
٣- رسالة في المعاني والبيان.
٤- رسالة في طريقة حفص في القراءات.
٥- رسالة في متشهابات القرآن.

وللشيخ الدردير أشعار كثيرة أغلبها في التصوف وعلم التوحيد، مثل قصيدته (الخريدة السنية) وقصيدته (الخريدة البهية). ومن الأعلام

المشهورين في تاريخ الأزهر الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي، المولود في بلدة (الطويلة) بالشرقية سنة ١١٥٠هـ، وتعلم في الأزهر، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨هـ، وفي عهده أنشئ رواق (الشراقوة). وكان الشيخ الشرقاوي عالمًا جليلًا، وزعيمًا سياسيًا، ومجاهدًا مضحيًا، وله مواقفه المشرفة في الدفاع عن حرية الشعب وكرامة الوطن، وقد توفي في القاهرة سنة ١٢٢٧هـ. ومن مؤلفاته هذه الكتب:

١- مختصر مغني اللبيب في النحو.

٢- التحفة البهية في طبقات الشافعية، من سنة ٩٠٠ إلى سنة ١١٢١.

٣- تاريخ مصر.

٤- متن العقائد المشرقية وشرحها.

٥- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين.

٦- حاشية على شرح التحرير.

٧- شرح حكم ابن عطاء الله السكندري.

٨- شرح الوصايا الكردية.

٩- فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي.

١٠- مختصر الشمائل مع شرحه.

ومن المشهورين في تاريخ الأزهر، الشيخ أبو العرفان مُحَمَّد بن علي الصبان الشافعي النحوي، الذي تعلم في الأزهر، وبرع في النحو، وتوفي في القاهرة سنة ١٢٠٦هـ. ومن كتبه:

١- الكافية الشافعية في علمي العروض والقافية.

٢- إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهله الكرام.
٣- أرجوزة في الفروض وشرحها.
٤- حاشية على شرح الأشموني للألفية.
٥- الرسالة الكبرى في البسملة.
٦- إسعاف الراغبين.
٧- حاشية على شرح الملوي للسلم.
٨- تقرير على مقدمة جمع الجوامع.
٩- حاشية على شرح الرسالة العضدية.
١٠- علم الهيئة.
١١- رسالة في الاستعارات.

ثم جاء الأزهري الواسع الأفق، العميق الثقافة، الجامع بين علم الدين وعلم الدنيا، الشيخ حسن بن مُحَمَّد بن محمود العطار المولود بالقاهرة سنة ١١٩٠هـ، وأصله من المغرب، واتصل برجال الحملة الفرنسية وتعلم منهم، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ، وحاول ربط الأزهريين بالعلوم الحديثة والمعارف المختلفة، وكان شعاره: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها". وكان يجيد عمل المزاول الليلية والنهارية، وله رسائل في الطب والتشريح، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية، وله أشعار رقيقة، منها قصائد في الغزل، وقد توفي الشيخ العطار بالقاهرة سنة ١٢٥٠. وله كتب كثيرة منها:

١- حاشية على جمع الجوامع.
٢- حاشية على مقولات الشيخ السجاعي.

٣- رسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط.

٤- رسائل في الطب والرمل والزايرجة والتشريح.

٥- رسالة في البسملة والحمدلة.

٦- إنشاء الشيخ العطار.

٧- حاشية شرح قواعد الإعراب.

٨- حاشية الأزهرية في النحو.

٩- حاشية العصام على الوضعية للإيجي.

١٠- شرح المنظومة في آداب البحث.

١١- شرح منظومة التشريح.

١٢- شرح نزهة الشيخ داود في الطب.

١٣- حاشية شرح أشكال التأسيس في علم الهندسة.

١٤- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس.

١٥- ديوان الشيخ العطار.

وجاء الأزهري العبقري المكفوف الشيخ حسين أحمد المرصفي، المولود في قرية (مرصفا) بالقليوبية سنة ١٨١٥هـ، وأصيب بكف البصر وهو في الثالثة من عمره، وتعلم في الأزهر، وكان صاحب حافظة قوية وعقلية ممتازة، وقام بالتدريس في الأزهر، ثم تعلم اللغة الفرنسية في ثلاثة أشهر، وانتفع بمطالعاته في الفرنسية، وقام بالتدريس في دار العلوم ومدرسة العميان، وهي أول مدرسة من نوعها في مصر، واختير عضوًا بالمجلس الأعلى للتعليم، وكان صديقًا للشاعر محمود سامي البارودي، وكانت

بينهما مراسلات ومساجلات. وقد توفي المرصفي بالقاهرة سنة ١٢٧٠هـ، وقد ترجمت له ترجمة واسعة في كتابي (في عالم المكفوفين) بالجزء الثاني. ومن كتب المرصفي ما يلي:

١- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية.

٢- دليل المسترشد إلى فن الإنشاء.

٣- رسالة الكلم الثمان.

ولا ننسى أن المرصفي كان أستاذًا للشاعرين الكبيرين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم.

ثم جاء الأزهري النابغ الجامع بين ثقافتي الشرق والغرب: رفاعة رافع الطهطاوي، المولود بطهطا سنة ١٢١٦هـ، وتعلم في الأزهر، واستكمل تعليمه في فرنسا، حينما كان إمامًا للبعثة الموفدة من مصر في عهد مُحَمَّد علي، وكان له أثر كبير في النهضة العلمية والفكرية، وهو الذي أسس مدرسة الألسن، وأنشأ جريدة الوقائع، وترجم كتبًا كثيرة مؤلفة ومترجمة، وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٩٠. ومن كتبه:

١- قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر (مترجم).

٢- المعادن النافعة (مترجم).

٣- مبادئ الهندسة.

٤- المرشد الأمين في تربية البنات والبنين.

٥- نهاية الإيجاز في السيرة النبوية.

٦- أنوار توفيق الجليل في تاريخ مصر.

٧- تعريب القانون المدني الفرنسي.

٨- بداية القدماء.

٩- تاريخ قدماء المصريين.

١٠- التعريبات الشافية لمريد الجغرافية.

١١- خلاصة الإبريز في رحلة باريز.

١٢- جغرافية بلاد الشام.

١٣- جغرافية ملطبرون.

وفي ختام هذه الجولة بين المشهورين في تاريخ الأزهر الشريف يأتي الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده، صاحب الجهد الكبير الضخم في إحياء النهضة الأدبية والفكرية في مصر، وقد صارت سيرته أشهر من أن تكرر هنا، وقد توفي سنة ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م. ومن كتبه ما يلي:

١- رسالة التوحيد.

٢- شرح نهج البلاغة.

٣- الواردات في التوحيد على طريقة الصوفية.

٤- فلسفة الاجتماع والتاريخ.

٥- تفسير القرآن (تفسير المنار) إلى أواخر سورة النساء.

٦- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني.

٧- تفسير جزء عم.

٨- نظام التربية والتعليم بمصر.

٩- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.

١٠- شرح البصائر النصيرية في المنطق.

وإنما ختمنا مسيرتنا هذه بالأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده؛ لأن حياته

انتهت بانتهاء القرن التاسع عشر ومبادئ القرن العشرين، وأما أعلام الأزهر في القرن العشرين بعد الأستاذ الإمام فإنهم كثيرون، ولم أحاول في مسيرتي هذه أن أستوعب الأشخاص، ولو أردت لما استطعت؛ فهناك غير هؤلاء المذكورين هنا كثيرون لهم مكانتهم ومؤلفاتهم، وكان لا بد من الاكتفاء بجانب منهم.

وكم أتمنى أن توضع دائرة معارف تحت عنوان: (أعلام الأزهر الشريف)، تضم تراجم لألوف الأزهريين الذين تألقوا في تاريخ الأزهر خلال ألف عام، وتحصي أعمالهم ومؤلفاتهم بقدر الإمكان. إن هذه أمنية تاريخية علمية، لو تحققت على وجهها لكانت خير تحية نقدمها إلى الأزهر المعمور، وإلى أرواح هؤلاء الذين توالوا على هذا المعهد الإسلامي الأكبر خلال هذه القرون العشرة.

وإني أضع هذا الاقتراح أمانة بين أيدي المسؤولين عن الأزهر، راجيًا أن يمتد العمر بالإنسان حتى تشهد عينه هذا الأمل حقيقة واقعة، وعلى الله قصد السبيل.